الذكاء وقيمته الاجتماعية

هل نحن أذكياء بالطبع أم بالتطبع ؟ هل الذكاء طبيعة نولد بها أم عادة نتعودها ؟ هل للوسط الذى نعيش فيه تأثير فى الذكاء بالزيادة أم بالنقص ؟ هذه الأسئلة كبيرة المغزى الاجتماعى، لأن علينا يتوقف رأينا فى النهاية عن قيمة التربية الحسنة فى الصبيان والشبان . لأنه إذا كان مقدار الذكاء موروثا لا يزيد بالتربية الحسنة ولا بالوسط الحسن فإن النظر الاجتماعى للمدرسة — وهى جنين المجتمع — وللوسط ، سيتغير .

وقبل أكثر من خمسين سنة ألف أحد العلماء الإنجليز وهو السر جالتون بن عم داروين كتابا بعنوان " العبقرية الوراثية " أورد فيه تاريخ الأسر التى اشتهرت فى التاريخ بالتفوق على اختلاف أنواعه : فى الإدارة وفى القضاء وفى العلوم وفى الآداب وفى غير ذلك مما يتنافس فيه الناس ، ولم يقتصر على العصر الحديث بل عاد إلى أيام الرومان ومن جاء بعدهم. وتقصى تراجم العبقريين وأقربائهم . وخرج برأى جبرى فى الذكاء . وهو أنه مقدار موروث يجرى فى الأسرة . فكما أن إحدى الأسر قد تتسم بالأنف الأشم أو الأنف الأفطس . كذلك تتسم أسرة أخرى بالذكاء الوافر أو الذكاء الناقص . فقد وجد جالتون أن الأسرة التى يظهر فيها عبقرى لا تلبث أن تجد له زملاء من العباقرة فى إخوته أو أبناء عمومته أو خئولته. فالذكاء يجرى فى الأسرة . ولكن القارئ لهذا الكتاب لا يسعه الا أن يتساءل أيضا : "لماذا لا نعزو تعدد الأذكياء أو المتفوقين فى أسرة معينة الى أن أفرادها يساعد بعضهم بعضا فى الحصول على المناصب العليا فى الدولة ؟ فالتعدد هنا نعزوه الى المحاباة . وأيضا نستطيع أن نعزوه الى أن الوسط الحسن الذى أثمر أحد المتفوقين وزوده بوسائل التربية والتعليم والأخلاق قد أثمر مثل هذه الميزات فى عضو آخر من الأسرة .

الواقع أن المسألة معقدة . فقد ثبت مثلا أن صبيان الإصلاحيات الذين وصلوا اليها بعد شذوذ أخلاقى أو بعد الوقوع فى جرائم صغيرة وكذلك كبار المجرمين فى السجون يتسمون فى المجموع بمقدار من الذكاء ينقص بعض الشىء عن المقدار السوى . وهذه الحقيقة تحملنا لأول وهلة على أن نقول : " هذا ما ننتظر . فإن الصبى أو الشاب الذى يقع فى الإجرام إنما يثبت بذلك أنه ضعيف الحيلة عن تحقيق غرضه بالوسائل المألوفة. وضعف الحيلة هنا هو عجز فى الذكاء . ولو كان المجرم ذكيا لما وقع فى الإجرام " .

ولكنا حين نقول هذا الكلام ننسى أن المجرم إنما ينشأ فى وسط سيئ لا يستنكر فيه الإجرام وهو يتخذ الإجرام أسلوبا للحياة ويتعوده عادة كما يتعود غيره الاستقامة أو الجد أو الشجاعة أو البر .

وهنا نستطيع أن نجرؤ ونقول : لم لا يكون الذكاء عادة ؟

أليس الذكاء هو نوع من النظر للأشياء؟ النظر الذى يرافقه النقد والجد والمثابرة والفحص وكراهة التسليم بظواهر الأشياء والرغبة فى التعمق كأنه — أى الذكاء — نوع من المكر النزيه ! وأننا نتعلم هذا النظر فى وسط ما ولا نتعلمه فى وسط آخر ؟

ولكن يبرز أمامنا مثال الأسر التى تتوارث البلاهة. فاننا حين نجد شخصا أبله قد اتضحت البلاهة فى لفته وهدامه وسلوكه لا نلبث أن نجد له أبا أو أما أو خئولة أو عمومة قد انضح فيها أيضا هذا البله. فاذا كان البله يورث، وهو درجة منحطة من الذكاء، فلماذا لا تورث العبقرية وهى درجة عالية من الذكاء ؟ ثم لماذا لا تورث سائر درجات الذكاء ؟

الحق أنه ليس هناك مفر من أن مقدارا من الذكاء يورث ، ولكن الاختلاف ينحصر فى : هل الذكاء كله موروث أم بعضه ؟ وهل فى مستطاعنا زيادة الذكاء بالتعليم والتربية أم أن هذه الزيادة غير ممكنة ؟

كان النظر الى الذكاء حتى العام الماضى بين رجال التربية نظرا جبريا ، وهو أن مقدار الذكاء الذى خص به كل منا لا يزيد بالتربية أو الوسط الحسن ، وكأنه قد كتب علينا أن نعيش بقامة معينة من الطول أو القصر . ولكن منذ أشهر أخذ هذا الرأى يتزعزع . ونقول يتزعزع فقط ولا نقول إنه انهار . لأنه ما زال له مؤيدون يستمسكون به كأنه العقيدة .

وقياس الذكاء مألوف فى المعاهد التعليمية منذ أيام بينيه السيكلوجى الفرنسى أى منذ نحو أربعين سنة تقريبا . وكان بينيه يؤمن بأن الذكاء كفاية وراثية لا يؤثر فيها الوسط . ولكن هذا الايمان تزعزع قليلا حين أدركته الآنسة ديجان بمقابلة احصائية عن درجات الذكاء فى مدرسة راقية هى مدرسة ديكرولى فى بلجيكا ودرجات الذكاء فى حى فقير فى باريس. فقد وجد أن الفرق عظيم وأنه لا يمكن أن يعزى إلا إلى أن الوسط المدرسى الراقى قد نبه الذكاء ونماه فى تلاميذ ديكرولى فى حين أن وسط الفاقة والعوز والحرمان فى الحى الفقير فى باريس قد بلّد الأذهان ونقص الذكاء . فكأن الذكاء ينمو توسعا وتعمقا بالمنبهات الذهنية التى يحصل عليها الصبى فى مدرسة راقية ولا يحصل عليها فى الحى الفقير .

وفى مدة الحرب الكبرى الماضية أجريت امتحانات الذكاء فى جميع الجنديين الأمريكيين . لأن الولايات المتحدة الأمريكية عندما دخلت الحرب كانت تحتاج الى السرعة فى الإعداد والتأهب . فعمدت الى امتحان الذكاء لكى لا يضيع الوقت فى تعليم الجنديين الذين لا يؤهلهم ذكاؤهم للتبعات الكبيرة والأعمال الدقيقة . وختارت الأذكياء وخصتهم بالمهم من الأعمال وتركت لمن دونهم فى الذكاء غير المهم .

وفى الولايات المتحدة ٤٨ ولاية تتفاوت عنايتها بالتعليم . فبعض الولايات متقدم جدا وبعضه متوسط ، وبعضه متأخر . وعمد الدكتور ناحلى الى الفحص عن الأذكياء والمتوسطين والبلداء كما أوضحت أحوالهم امتحانات الذكاء فى الجيش الأمريكى . وبحث عن الولاية التى خرجوا منها فوجد أن أكثر الولايات أذكياء كانت تلك التى عنيت أكثر من غيرها بالتعليم . وأقلها فى الذكاء تلك التى قلت عنايتها بالمدارس والتعليم . فهنا نجد استنتاجا يدل على أن الذكاء ينمو بالمدرسة الحسنة ويعجز بالمدرسة السيئة أو بنقص التعليم أو انعدامه . وعمد الدكتور ولمان الى مدرسة منحطة سيئة التعليم فنقل منها بعض تلاميذها الى مدرسة راقية تأخذ بالأساليب العصرية فوجد أن درجة الذكاء فى هؤلاء المنقولين قد زادت مع أنها بقيت على حالها السابقة عند التلاميذ الذين بقوا فى المدرسة المنحطة .

وكما كان هناك من يعزو الى الوراثة كل شيء فى الذكاء قد أصبحنا نرى من يكاد يهملها تماما ويعزو الذكاء كله الى الوسط . فهذا ولترنيف مثلا يقول : " إن اختلاف أرقام الذكاء للأطفال الذين ينتمون الى بيئات اجتماعية واقتصادية متباينة يمكن أن يعزى كله الى اختلاف الفرص التى تتيحها هذه البيئات المتباينة . وليس هناك ما يدعو الى الاعتماد على نظرية الوراثة ".

وهذا هو الطرف الأقصى لدعاة الوسط ، كما أن هناك طرفا أقصى لدعاة الوراثة . ويبدو أن الحقيقة هى بين الطرفين . أى أن الذكاء هو نتاج أو ثمرة الوراثة والوسط معا . وأن الجدرية العلمية فى هذا الموضوع لم تعد تنهض على أساس . والمغزى الاجتماعى من هذا النظر الجديد أن الإصلاح الصحى والرفاهية الاقتصادية والرقى الاجتماعى — كل هذا يرقى الذكاء كما يرقيه انتشار المدارس وزيادة السن للتعليم . فإذا كانت الأمة تريد الذكاء فى أبنائها وإذا كانت تريد مكافحة البلادة والغفلة فإنها يجب أن تشمر عن ساعد الجد وتكافح الأمية والفاقة والقبح فى المنزل والشارع ، ويجب أن ترقى مدارسها وتحسن البيئة التى يعيش فيها الصبيان بإيجاد الأندية والملاعب والمكتبات الحسنة .